هل ايران هي المايسترو الذي يدير المجابهة الشاملة في المنطقة اليوم؟

عبد الاميرالركابي *

■ لست ادعي انني مكلف بايصال رسائل الى احد، فما اعرفه يعرفه الايرانيون، حكومة، واجهزة ومرشدا، اكثر مني، غير انني اريد ان افترض بناء على اعتبارات ومداولات ومعلومات، ليست بعيدة عن قلب الاحداث ولا عن صانعي الحدث، بان ما يجري في لبنان اليوم، يتطلب من ايران ليس ان ترسل وزير خارجيتها الى لبنان، ليعلن مواقف متشددة، ويتجاوز حدود اللياقة في التعامل مع ممثلي الدولة اللبنانية، بينما هو لا يستطيع، او لا ينوي، عمل اي شيء نافع لحزب الله، وللمقاومة اللبنانية، فحزب الله ليس سوبرمان، وثقل الانتصار الذي حققه هائل، وباهظ، سينوء به، وقد يقتل بسببه اذا ظل وحيدا، يتلقى ممن هم بموقع حلفائه، الصمت المريب، كما هو حال سورية، او التعنت المجاني، كما تفعل ايران الرسميه.

حين سمعنا السيد احمدي نجاد مع بدايات المعركة في لبنان، يقول: «ان العاصفة تقترب من الشرق الاوسط»، اعتقدنا ان الرئيس الايراني يخفي شيئا ما، وان جعبته قد تكون مليئه بمفاجآت استراتيجية، واول ما ذهب التفكير اليه هو العراق، ففي هذا المكان فقط، يمكن ايلام الولايات المتحدة وضربها في مقتل، واذا كانت النية معقودة على الوصول الى لحظة «تغيير اتجاه البنادق» في ارض الرافدين، فان الصورة سوف تكون وقتها مختلفة كليا، والحسابات تصبح مطمئنة الى ابعد حد.

اذا انقلب موقف القوى «العراقية» القريبة من ايران، او التي يقال بانها تلتزم بما تقترحه عليها، وهددت هذه بالخروج من «العملية السياسية»، ثم باشرت من توها العمل المسلح في الفرات الاوسط والجنوب وبغداد، سيصبح من المستحيل على الولايات المتحدة ان لا تعيد حساباتها في لبنان والعراق والمنطقة ككل، والمهم في مثل هذا التطور ليس فقط الجانب العسكري، او حتى الانقلاب السياسي، على خطورته الاستثنائية، فمن الطبيعي ان يترافق انقلاب كهذا، مع مبادرة وطنية الى «مصالحة» من نوع مختلف عن سواها من الدعوات المستحيلة الى المصالحة المطروحة الان، او التي سبق ان طرحت من قبل، والنداء الى التلاحم من اجل اخراج المحتلين، من شأنه هو فقط ان يقلب الاوضاع راسا على عقب، فتندحر سياسة اغراق البلاد في الحرب الاهلية، ويتراجع التوتر الطائفي المصنوع من قبل الاحتلال، واذا ما نودي بقيام مؤتمر وطني عام، تحت شعارات التحرير، فان الفتنة المشتعلة بين المكونات العراقية بفعل فاعل، سوف تقبر.

لقد ساهمت الايام الماضية من المواجهة، بين المقاومة اللبنانية والكيان الصهيوني في تغيير المناخ العام في المنطقة، فتراجعت كثيرا مظاهر التوتر الطائفي، وحلت محلها اجواء اخرى، ترافقت مع استحضار مقاييس جديدة للفرز، واعيد الاعتبار الى الموقف «المقاوم» وقواه ومعسكره، بمقابل المنطق «المتواطىء» وقواه وجبهته، وبسبب صمود المقاومة اللبنانية وبسالتها الاسطورية، فقد امكن احراز انتصارات بينة على المعسكر المناهض للمقاومة، شعبيا ورسميا، ومع ان انعكاسات هذه الحاله المستجدة، لم تعرف حتى الان في العراق، الا ان اصداء لها قد لاحت، وقد توافقت اصوات الخطباء في المساجد هناك اخيرا، على تاييد المقاومة اللبنانية، وامكن بهذه المناسبة، تجاوز الحاجز الطائفي، كما خرجت تظاهرات ضخمة، تؤيد المقاومة اللبنانية، والمناخ يميل الى مزيد من التحسن، والامريكيون منزعجون من احتمال تطور الموقف، بما يخدم استعادة اللحمة بين العراقيين، برغم غياب القوة السياسية القادرة على استثمار اللحظة، بما يؤدي الى اعادة انتاج الوحدة الوطنية.

وكل هذا من شأنه ان يختصر الطريق، على اية مبادرة يكون عنوانها، المواجهة الشاملة مع الاحتلال، وهو طريق لم يعد من الممكن اصلا تحاشيه من ناحية، ولا التغاضي عن اغراءاته من ناحية اخرى، فالذي فعله حزب الله حتى هذه اللحظة، قلص المسافة امام تغير طابع «الدور الايراني»، وفتح افقا هائلا امام انقلاب دلالات «الهلال الشيعي» المروج لها من قبل اطراف، ثبت اليوم انها جزء من التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي، ثلاثة على التوالي هاجموا حزب الله اليوم، هم عاهل الاردن، وآل سعود، والرئيس المصري حسني مبارك، وهم على التوالي، الذين نبهوا لخطر «الهلال الشيعي»، وتسليم الامريكيين مقدرات العراق لايران، والشك في ولاء العراقيين الشيعه لوطنهم، وهؤلاء ينظر اليهم من قبل احرار العرب اليوم، باعتبارهم راس الحلف «العربي» مع اسرائيل، والولايات المتحدة الامريكية، لكن في المقابل، ما تزال ملامح وموضوعات، محور الطور الثاني من نهوض الحركة التحررية في العالم العربي والشرق الاوسط، غير محددة تماما، وثمة قوى عربية حرة بالكاد تقبل مغادرة نظرية «الامبرياليتين»، الايرانية من جهه، والامريكية من جهة ـ هذا يذكرنا ولو بشيء من الكاريكيتيريه بنظرية الحزب الشيوعي الصيني عن الامبرياليتين السوفييتية والامريكية ـ والدول العربية المتحالفة مع الامريكيين، ومع اسرائيل، تحاول الان ان تستدرك، وهي اصبحت تبدي «حرصا شديدا» على لبنان، حتى لا تلحق نهائيا بمعسكر الاعداء.

من السهل القول بان هؤلاء كانوا يروجون علنا، لفكرة «الهيمنة الايرانية» بالتوافق مع ما يريده الامريكيون، الخائفون من احتمال تطور حلف ايران سورية فلسطين لبنان باتجاه العراق، وحتى يمكن منع هذا المحور، من ان يكتسي طابع معسكر المقاومة والرفض العربي الشرق اوسطي، يختار اعضاء هذا المحور العزف على الحساسيات «القومية»، والعنصرية، ويغذون المشاعر الطائفية، بينما يعمل الامريكيون بكل جهدهم في العراق، على صناعة الحرب الطائفية، وقد افلحوا في اغراق «المقاومة» بطوفان القتل اليومي بين العراقيين، الامر الذي يزكي وجهة نظر اصحاب «نظرية الامبرياليتين» عمليا، وبالاخص في العراق، الذي يمثل الان نقطة الضعف الكبرى، لا بل المعضلة، التي ما تزال تمنع «السلسلة المقاومة والمانعة» من ان تلتمع كلها وتلتهب على ايقاع واحد.

صحيح ان الوضع العراقي ينطوي هو نفسه، على اسباب ساعدت الامريكيين على ضرب الوحدة الوطنية، وسهلت لهم مهمتهم، وان بعض هذه الاسباب مستعصية، ولها خلفيات تاريخية، كما ان بعضها يعود الى ظروف، رافقت نشاة «المقاومة العراقية»، كما الى طبيعة القوى التي هيمنت على توجهاتها، الا ان دور القوى القريبة من ايران، كان كبيرا، وخطيرا، خصوصا بما يتعلق بقبولها المبدأ الاساسي الاول المحفز للصراع الداخلي، والذي ما زال يؤجهه وسيبقى، فـ«المحاصصة» هي مشروع حرب اهليه حتمي، من سوء حظ العراق، انه وقع في المقابل على حالة، طغت خلالها على عمل «المقاومة»، بقايا قوى وتيارات مدنية الوعي، او تكفيرية، او راغبة بالعودة الى سلطة، والى شكل نظام اصيح من الماضي، وبمقابل ممارسة «المحاصصة» سيئة الصيت والنتائج والطبيعة، كانت شعارات «عودة النظام الدكتاتوري» او «المقاومة هي الممثل الشرعي الوحيد» تقدم الوجه الآخر للعملة، ومن هنا توفر الذراعان الضروريان بيد الاحتلال، لقتل «المقاومة» بالحرب الاهلية.

ولسنا راغبين في عرض آراء، قد تبدو الان غريبة وصعبة الاثبات، ولكن بعض المجازفات الاعتبارية في مثل الحالة التي نمر بها اليوم لازمة، ولا يجوز التهرب منها، ونقصد مسالة البعد العراقي في الحدث اللبناني، ونستطيع ان نؤكد بصورة لا لبس فيها ان مازق الوضع العراقي المقاوم، كان حاضرا بقوة في القرار الذي اتخذته قيادة المقاومة في لبنان، وانا اتحدث هنا عن مجريات مباشرة وعن وقائع ومناقشات وبحث شخصي، مع قيادة المقاومة ومع قائدها السيد حسن نصر الله، خلال السنتين المنصرمتين، ومن المهم ان يفهم بان المسالة الايرانية، كانت موضوعة في الاعتبار، لدى قوى من داخل معسكر المقاومة والممانعة، وان طريقة التعامل مع ايران، لم تكن، لا اليوم ولا في الماضي، محصورة اما في العداء وتبني «نظرية الامبرياليتين»، او في الرضوخ وتلقي الاوامر.

ايران بلد بعيد بالنسبة للبنان، وهو اضعف من ان يهيمن على العراق والعالم العربي، ومن يروجون اراء كهذه، لا ينتبهون الى مدى الاهانة التي يوجهونها لانفسهم، ولا المخالفات التي يرتكبونها بحق التاريخ، والاهم من كل هذا، ان ايران اليوم لا تملك، لا بالعلاقة مع الفلسطينين، ولا اللبنانيين، ولا حتى العراقيين، سطوة تؤهلها لاصدار الاوامر، عدا عن انها مستهدفة في الوقت الحاضر في وجودها. ان بعض من يرددون المواقف التي ترى في ايران «بعبعا» من دون تدقيق، يذكروننا بمشكلات اللحظة الانتقالية التي تمر بها حركة التحرر العربية في طورها الثاني الحالي، فهذه الحركة ما تزال تعاني من سطوة الافكار القديمه المترسبة من فترات ماضيه، ومن عقود وافكار التراجع والهزيمه، وبين القول بان ايران هي «امبريالية»، والقول بان ايران بلد من بلدان العالم الثالث، ضعيف ومحاصر، ومستهدف، فرق كبير، تترتب عليه اختلافات فاصلة في التوجه، وفي رسم الستراتيجيات، وما يحدد الفروق بين هذه الرؤية وتلك، هو المستجد العالمي الذي نواجهه اليوم جميعا، فسياسات الولايات المتحدة الراهنة، لا تسمح لايران، ولا لغيرها من مكونات «الشرق الاوسط الكبير» مهما فعلت، ان تحقق مصالحها الاقليميه، او الحيوية، وهي تهددها اصلا كدول وكيانات موحدة، ومسألة احتلال العراق كبداية، وكمنطلق، لبسط النفوذ الامبراطوري الامريكي في المنطقة، قررته مقتضيات استراتيجية دقيقه، اعطت وما تزال للعراق، موقع ودور المفتاح والعاصمه المقررة في قيادة الامبراطورية الفرعية المسماة ب«الشرق الاوسط الكبير»، وحسب السياق الذي اتخذته السياسة الامريكية في العقدين المنصرمين، فان معادلة اقامة هذا الشرق اوسط، ترتكز اقليميا، على قوتين هما «العراق» و«اسرائيل»، وليس على ايران واسرائيل، مع افضلية وارجحية لبغداد، التي يبني الامريكيون فيها اكبر واضخم سفارة لدولة في التاريخ، صانعين عرشا لسفير، هو بالاحرى امبراطور لامبراطورية فرعية مأمولة، تمتد من حدود الصين الى اسبانيا، ها هو هارون الرشيد يحضر في القرن الواحد والعشرين.

لهذا تتغير ايران اليوم بسرعة، فقد ابتلعت السياسة الامريكية الراهنة صورة رفسنجاني، واخفت سحنته الفارسية الماكرة، كما اسقطت بضربة مفاجئة صورة المسلم «المثقف»، المنفتح على الغرب والعالم «خاتمي»، لصالح رئيس بلدية طهران، المتواضع المظهر «الخميني المهدوي» ـ قضى احمدي نجاد فترة ادارته لبلدية طهران يجملها حتى تليق بعودة المهدي المنتظر ـ ولا شك انها تعيش الان، تمخضات عودة خمينية ثانية، لا تنتمي الا من بعيد، الى عصرمؤسس الثورة وقائدها الاول، ففي عصر مشروع الامبراطورية الامريكية الراهن، لا تستطيع ايران ان تصدر شيئا لغيرها من البلدان العربية، وهي لا تحتل في افضل الاحوال، اكثر من موقع طرف مهم، في معادلة تنتظمها احتمالات حيويه، تتشكل باطراد، وبالتفاعل بين مواضع وحلقات من سلسلة مترابطة كلها لها اهمية.

والبحث عن موضع لصناعة القرار بين هذه الحلقات، والقاء هذه المهمة في طهران، لا يوصلنا الى الحقيقة، هنالك تفاعلات وشروط خاصة واولويات، حين تجتمع، تفوق قدرة ايران على الاحاطة، وسوى ذلك، فان الامر يذهب في بعض الاحيان بايران، مذاهب تجعلها تابعة، اكثر مما هي قائدة او مقررة، ففي فلسطين، او حتى لبنان، لا يمكن لايران ان تكون سيدة القرارات، وكذلك الامر بالنسبة لسورية، والخاصرة العليله في الموقف الاجمالي، هي العراق، فالقوى التي تمثل الامتداد المذهبي المتطابق مع السياسة الايرانية الحكومية هناك، ضيق الافق، ومحدود الرؤية، ولا يستطيع النظر الى الابعاد التي يمكن ان تترتب، حتى بالمردود الطائفي البحت، على اتخاذ مواقف مناهضة للاحتلال الامريكي، ويشكل هؤلاء الان، عبئا ثقيلا في المكان الاكثر حساسية، فلنتصور لو ان القوى «الشيعية» في العراق قررت غدا، وبعد الذي جرى ويجري في لبنان حاليا، التهديد الجدي بالانسحاب من «العملية السياسية الامريكية»، وارادت بالفعل ان تتوجه لحمل السلاح، وبادرت للانفتاح على السنه العرب العراقيين، مشكلة واياهم جبهة مقاومة للوجود الامريكي، اذن لكسب الشيعة اعظم نصر عرفوه في تاريخهم كله، ولتقدموا اميالا بعيدة، في الطريق نحو دحر المشروع الامريكي والهيمنة الامريكية، كما نحو اكتساب شرعية المشاركة في صياغة حاضر ومصير الامة والمنطقة، فقيام تحالف «عربي» شيعي سني يؤسس في مجرى مقاومة الاحتلال في العراق، سينتهي قطعا الى هزيمة الامريكيين، ويؤسس لوحدة اسلامية تكرس الهلال الشيعي بالفعل في قلب القمر السني.

وهذا هو سبيل دعم المقاومة اللبنانية، وحمايتها، وايران تستطيع ان تفعل الشيء الكثير، اذا هي واصلت حراكها الصحي، وعرفت اكثر فاكثر، كيف تربط مصالحها الحيوية بمصير ومستقبل المنطقة، وبانتصارها وتحررها، بمواجهة مشروع الهيمنة الامريكية، وفي هذه النقطه بالذات، يملك العرب الاحرار ان يفعلوا الشيء الكثير، وليس عليهم الا ان يتاكدوا من ان دورهم «القيادي» في جلب ايران الى ساحة المعركة المصيرية والمشتركة، مهم لايران وللمنطقة، قبل ان يقرروا اليوم عمليا وتوسيع مداه، وقد يكون من المفيد ان اكشف هنا عن سوابق من هذا النوع، كانت تمارس، منها جهود قام بها السيد حسن نصر الله، واخرى قام بها الرئيس بشار الاسد، ولكن لم يسبق ان كان مثل هذا الدور ضروريا وملحا، كما هو اليوم، وبما ان سيد المقاومة، لا يستطيع ممارسة هذه المهمة في الوقت الراهن، فان تبعاتها كاملة، تقع حاليا، على كاهل الرئيس بشار الاسد لوحده، ولعل اخطر وأهم ما يمكن للرئيس السوري القيام به في الايام المقبلة، ان يغادر الى ايران ليقول هناك جملة واحدة، يرددها امام المرشد، ورئيس الجمهورية، وكل المسؤولين والنافذين الايرانيين: «سارعوا الى فتح جبهة العراق ان استطعتم.... وفورا».

فهل هذا كل شيء، لا طبعا، الاحرار في العالم العربي، ينبغي ان يوجهوا للايرانيين نفس النداء، كل من موقعه، وحسب امكاناته، والصلات التي يملكها، فهكذا تمارس القيادة اليوم، وتحضر الامه التي تريد ان تكون فاعلة، بدل ان تتقبل منطق الريبة والشكوك، وتقيم الحواجز بينها وبين احتمالات نافعة لها، الدور القيادي العربي موجود امامنا، فلنحمل الايرانيين المسؤولية في حماية ودعم المقاومة اللبنانية /العربية، عبر البوابة العراقية الفاصلة، ولنلق عليهم الحجة، بتوجيه النداءات عبر المنابر، او السفارات، او بارسال الوفود، مشفوعة بكل الحيثيات والمبررات، فلقد ولى تماما زمن الحروب و«القادسيات»، وفي غمرة الظروف الراهنة، يمكننا ان ننتصر بتوحيد المصالح، وتجسيد وحدة المصير والمبادرة الخلاقة.

شيء واحد ينبغي ان لا ننساه، هو ان الوضع العراقي ليس سيئا الى حد لا يرجى منه أمل، وهنالك قوى حية، تستطيع ان تلعب دورا كبيرا ومحوريا في التحرك الراهن، ولن نختم قبل ان نعرض ملاحظة مفيدة فبعض الجهات القريبة من ايران، تقول الآن حين تسال، بان: «السيستاني وجه رسالة الى الامريكيين، ابلغهم فيها بانه لن يسمح بهزيمة حزب الله في لبنان» وهذا نوع من التهرب المدبر والواضح المقاصد، المطلوب ثورة في العراق، كانت اصلا منتظرة، ولم يعد بالامكان تاجيلها، وها هي تطلب اليوم، تحت وقع ما يسمونه عادة، لحظة الولادات التاريخية الكبرى.

فرضية وجود مايسترو هو الذي يقود خطة المجابهة الشاملة الجارية في المنطقة اليوم، تؤكدها لنا جهات كثيرة متباينة المنطلقات، هؤلاء كلهم يتفقون بان المقصود هو: الحكومة الايرانية، نقبل ذلك او لا نقبله ليس هذا الامر الذي يشغلنا الان (كتبنا مبكرا وقبل الانتخابات العراقية الاخيرة عن موجة «خمينية ثانية» اثارها تطور الوضع العراقي بعد الغزو واشرنا مبكرا جدا الى تحالف يمتد من فلسطين الى لبنان والعراق عبر سورية الى ايران).

مسالة الموقف من مثل هذا الدور تزداد تعقيدا، الكثيرون يريدون ان يساووا بين «الدور الامريكي /الاسرائيلي» والدور «الايراني»، والمبالغات العنصرية والطائفية العمياء، تروج لنظرية «التوازن» بين الدورين، مقدمين بذلك خدمة لا تقدر بثمن للامريكيين والاسرائيليين، فالدور الامريكي الاسرائيلي معروف، واصحابة لا يحلمون بان يتم تقبلهم من جانب العرب والمسلمين، لكن تداول نظرية «الامبرياليتين» ـ يذكرنا مع الفارق بنظرية الحزب الشيوعي الصيني عن الامبرياليتين الروسيه والامريكية ـ تساعد برغم خراقتها وما تنطوي عليه من لاعقلانيه وغباء، في تشتيت الانظار بقدر ما توزع الانظار على خطرين احدهما مختلق ووهمي، بدل التركيز على خطر واحد حقيقي ومدمر.

لا احد استغرب اليوم بالذات ان يلتقي كل من ملك الاردن والنظام السعودي والرئيس المصري، في خانة الحلف المعلن مع الولايات المتحدة واسرائيل، وان تكون حجة هؤلاء الاولى والاخيرة هي التدخلات الايرانية، الملفت ان هؤلاء الثلاثة هم من تناوبوا على التحدث تباعا في اوقات سابقة عن (المثلث الشيعي وعن تسليم امريكا ايران مقدرات العراق واخيرا عن ولاء الشيعة في العراق لايران وليس للعراق) وجماعة 14 اذار في لبنان، الذين هم نسخة طبق الاصل من جماعات «العملية السياسية» في العراق، لا شيء لديهم يقولونه ضد المقاومة وحزب الله سوى (التدخل الايراني السوري)، وهذا بالضبط ما نسمعه يتردد على لسان الاسرائيليين والامريكان، انها «جبهة» دعم عربي معلن لاسرائيل في حربها ضد المقاومة اللبنانية، بادر رئيس الوزراء الاسرائيلي بغبائه المعهود وحياها في خطاب علني، والصحافة الاسرائيليه تحدثت عن «رسائل» تلقتها اسرائيل من حكام عرب تشجعها وتطالبها بانجاز المهمة حتى النهاية.

هذا الحدث بين بقوة ان مسار الزمن والاشياء لا يؤدي الى الكشف عن المزيد من ملامح «امبريالية ايران»، بينما هو يفضح باطراد، تواطؤ وخيانة من يدعون انها «امبريالية» مثلها مثل الولايات المتحدة، لا يعني ذلك ان الظلال قد زالت تماما عن جبين ايران، او ان حضورها بريء تماما من الشكوك، او مما يستوجب الحيطة والانتباه.

* كاتب من العراق يقيم في باريس

حسابات الربح والخسارة

د. محيي الدين عميمور*

■ بعد نحو اربعين سنة من وفاة الرئيس هواري بو مدين يُعطي التاريخ المعاصر للرئيس الجزائري الراحل حقه كاملا فيما يتعلق باوليات الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وهو ما تجاهله كثيرون ممن يعرفون الامر حق المعرفة لانهم راوا فيه خروجا عن منطق الرداءة السائدة.

كان بو مدين يؤمن بان مواجهة اسرائيل لا تتم بالاعتماد المطلق على الجيوش النظامية، بكل ما تخلقه حولها من اساطير لا يؤمن بها غيرها، تكون وسيلتها للنفوذ والتحكم في مصائر الشعوب، وغالبا عبر قيادات مدنية يمكن تحييدها بسهولة بمجرد التلويح بالعدو الموجود على الابواب، ينتظر ان تغمض مصالح الامن عينيها ليتسرب داخل البناء.

وكان الرئيس الجزائري، بحكم دراسته للتجربة الفيتنامية والجزائرية ثم باستيعابه لدروس معركة الكرامة على ضفاف الاردن، ممن يؤمنون بان تدمير العدو الاسرائيلي لن يتم الا بالحرب الشعبية المنظمة التي تتكامل مع الجهد العسكري النظامي، ويتحقق فيها التناسق بين وحدة مركز القرار الاستراتيجي وحرية الحركة بالنسبة للمجال التنفيذي، وبصورة تبدو اقرب الى اللامركزية.

واذكر انه روى لي يوما حديثا دار بينه وبين الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر بعد هزيمة 1967، حيث قال له الرئيس المصري وهو يحاول اخفاء المه ان الطريق بين السويس والقاهرة مفتوح امام الغزاة، اذ ليس فيها جندي مصري واحد، فاجابه بو مدين قائلا بان الاسرائيليين لن يجرؤوا على المجازفة بقواتهم ومجنزراتهم في اوحال الدلتا وطرق المدن المصرية، واذا فعلوا ذلك فان فيه نهاية اسطورة تفوقهم، ثم نهاية الدولة العنصرية نفسها.

ولست ادرى مدى اقتناع الرئيس المصري، ابن المدرسة العسكرية النظامية البارز، بطروحات زميله الجزائري، مناضل الثورة الجزائرية المتميز، لكن تلك المرحلة شهدت، وابتداء من ضرب «راس العش» واغراق ايلات، سلسلة من العمليات البطولية التي قامت بها وحدات نظامية صغيرة استعملت اسلوبا اقرب الى اسلوب حرب العصابات، وهي عمليات اصطلح على تسميتها حرب الاستنزاف وتستحق ان يطلق عليها عسكريا: الحرب العربية ـ الاسرائيلية الرابعة (الاولى في 1948 والثانية في 1956 والثالثة في 1967) وهو ما يجعل من العدوان الاسرائيلي الاخير على لبنان الحرب العربية السابعة (بعد حرب اكتوبر التي عرفت اروع البطولات العسكرية واسوأ المناورات السياسية ثم الحرب السادسة بغزو لبنان في 1982 والتي انتهت بانتصار لبنان بفضل مقاومته الصلبة).

الحرب السابعة كانت دليلا على صحة وجهة النظر التي نادى بها الرئيس الجزائري، فقد استطاع حزب الله، بايمانه ووحدة قيادته وانضباط جنوده وكفاءتهم ثم بالصبر والمصابرة والالتزام بالسرية، تحطيم آخر الاساطير المتعلقة بالجيش الاسرائيلي، واضطرته الى ان يبدو على حقيقته كجيش همجي عنصري يمارس ابادة جماعية Genocide لا يسلم من شرها انسان او حيوان او جماد، وهو يختفي وراء الدروع ويفر من المواجهة المباشرة ويستعين بالقوى الدولية، حكومات وشعوبا وتنظيمات على شكل «لوبيات» متناثرة، معتمدا على عقدة الذنب التي زرعها في الغرب منذ عقود.

الحرب الشعبية اذن هي مقتل العدو الاسرائيلي، ولقد كان هذا من اهم عناصر السجال بين مصر والجزائر في الستينيات، فقد كان الاستاذ محمد حسنين هيكل يصر على القول بان وضعية الطوبوغرافيا في المشرق العربي تختلف عنها في فيتنام او الجزائر، وهي بالتالي لا يمكن ان تكون مجالا صالحا للحروب الشعبية، وهو امر كذبته وقائع حرب الاستنزاف لان المقصود بالحرب الشعبية لم يكن دفع الحشود المتراصة لكي تواجه الدروع بصدرها ولكنه زيادة عدد المجموعات المقاتلة وانقاص عدد افرادها واعطائهم حرية الحركة طبقا لتصور القيادات الميدانية بمختلف مستوياتها، وذلك في اطار استراتيجية عامة تحددها القيادة العليا طبقا لمعطياتها ولمتطلباتها.

يومها اطلقتُ على الاستاذ هيكل لقب فيلسوف الهزيمة، الذي كان الرئيس الراحل بو مدين يستعمله احيانا، وبدون ان يُقلل هذا من القيمة الذاتية والقدرة البلاغية للصحافي الكبير، ولهذا قلت في ايلول (سبتمبر) 1968 في مجلة الجيش بان «الذين اخذوا حديثي على انه موجه الى شخص الاستاذ هيكل مخطئون، لانني كنت اهاجم موقفا من مواقفه (..) ولا بد من الاعتراف بان هيكل صحافي ممتاز ادى الدور الذي طُلب منه اداؤه، وتحمل، وربما وحده، كل اللعنات».

لكن موقف الاستاذ هيكل كان عنيدا ولدرجة انني اضطررت، وفي عدد 13 ايلول (سبتمبر) 1970 من مجلة «المجاهد»، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، الى ان ارفض بكل صراحة قوله بان «حرب الشرق الاوسط سوف يتقرر اتجاهها على شريط من الارض يمتد بمحاذاة قناة السويس والى عمق ثلاثين كيلومترا منها» لاننا كنا نرى في الجزائر ان الحرب يجب ان تشمل كل الارض العربية من المحيط الى المحيط وكل الطاقات العربية بشرا ونفطا وتبادلا تجاريا، فرديا وجماعيا.

واعترف هنا انني سعيد اليوم بتراجع هيكل عن بعض ما كان يُسوّقه لنا آنذاك، وخصوصا بقوله «ان احتلال اسرائيل لارضنا ليس مشكلة، وانه لو اعلنا انه لا يعنينا من الصراع الا ما يمس حدودنا الدولية لسارعت اسرائيل الى الانسحاب»، لان الذي قاله حدث فعلا بعد كامب دافيد ولم يؤد لا الى انسحاب يعيد السيادة ولا الى سلام يضمن التنمية الوطنية.

واذكر انني قلت يومها في نفس المقال بان «اسرائيل لن تنسحب من حدود مصر الدولية لان بقاءها هناك جزء من استراتيجيتها، والضمان الوحيد لانسحاب شامل وكامل هو قومية المعركة، اسما ومضمونا لا شعارا اجوف تخدع به الجماهير، وقومية المعركة، كما قلت، لا تتعارض مع اقليميتها، والمعارك البيزنطية التي تدور حول التسميات هي محاولة لتقديم المصالح الاقليمية على انها ضرورات قومية، وهو ما نرفضه جملة وتفصيلا».

وقلت في 20 ايلول (سبتمبر) بان المناضل الجزائري لم يفقد ايمانه بوحدته العربية وبوحدة النضال العربي حتى في احلك اللحظات عندما انهارت الآمال والاحلام، ولم يكن ابدا «من حملة الشعارات التي تريح اعصاب اصحابها ولكنها لا تؤثر في الاوضاع تاثيرا حقيقيا، على حد قول ف.هـ».

واذا كنت اجتر هذا كله فلكي اعبر عن ارتياحي لان الزمن اعطى الجزائر حقها، واثبت بان كل ما كنّا ننادي به كان تعبيرا عن دراسة عملية لمتطلبات الكفاح ضد العدو الصهيوني منبثقة عن تجربة ميدانية دفعنا فيها مئات الآلاف من الشهداء والمعطوبين والايتام والارامل.

ولعل هذا كله مما يُفسر خيبة الامل التي تجتاح الجزائر وهي تقارن بين موقف جزائر الحزب الواحد في الستينيات والسبعينيات وجزائر التعددية الساذجة التي انزلقنا اليها بعد احداث تشرين الاول (اكتوبر) 1988 المشبوهة، وان كنت ارى ان ما تعرفه الجزائر اليوم هو صورة لما تعرفه كل البلدان العربية بدرجات متفاوتة من الحدة او العمق او الاتساع.

ولن اكرر ما مللنا من سماعه ضد انظمة الحكم العربية، لانني احمل المسؤولية اولا وقبل كل شيء للطبقة السياسية العربية في مجملها، احزابا ولهيئات المجتمع المدني في معظم الاقطار العربية، لانها فشلت في استيعاب حركة الجماهير وتجنيدها والتعبير عنها بمصداقية حقيقية، ولانها فشلت في ان تتقدم للقيادات السياسية كشريك حقيقي في اتخاذ القرار، وتاكد اليوم انها لا تبحث عن السلطة بل عن المشاركة فيها والتمتع بمزاياها بدون تحمل اوزارها، والفرق واضح.

وهكذا رحنا نسمع المزايدات المضحكة والناس يموتون في كل لحظة، ومن بينها تصريح المرشد العام للاخوان المسلمين في مصر بانه سوف يرسل عشرة آلاف مقاتل لدعم المقاومة اللبنانية.

وانا ممن يقولون بان للاخوان المسلمين قاعدة شعبية رائعة ومؤمنة وعلى استعداد للتضحية، لكن ما قاله السيد عاكف يدخل في دائرة التهريج الخطابي، لان جمع هذا العدد يجب ان يتم في مكان معين ولمدة معينة تجري فيها دراسة الوضع والارض والمعطيات الميدانية، فاين يمكن ان يتم هذا في مصر التي لا تسمح بتجمعات اخوانية؟

ثم، من اين سيمر هؤلاء المتطوعون ونحن، مثلا، عاجزون عن ارسال طائرات المعونة الجزائرية الضخمة التي تجمعت في مطار بو فاريك، حسب ما سمعنا، تماما كما ان ناقلات الوقود الجزائرية متوقفة في قبرص لانها، مثل الطائرات، لا تملك الضمانات الكافية للتوجه للموانئ اللبنانية.

ولا اعرف من اين كان السيد عاكف سيرسل جنوده، هل من البحر ام من سورية ام عبر انزال جوي من طائرات لا نعرف من اين يؤتى بها؟

لكن مسؤولية انظمة الحكم العربية تظل قائمة واساسية، فهي لم تضع استراتيجية عملية للمواجهة، يتكامل فيها جهد الجميع، واعتمدت على خرافة الشعار الذي ينادي بان السلم هو خيار استراتيجي، في حين يعرف طفل المدارس الابتدائية بان سلاما لا تسنده قوة هو استسلام.

انطباعات عابرة

ـ احجام الدول العربية التي ترتبط بعلاقات مع اسرائيل عن استدعاء سفرائها للتشاور، وهو اضعف الايمان، يكاد يجعلني اظن ان الاتفاقيات التي وقعت تضم بنودا سرية عن عقوبات محتملة قد تشارك في اتخاذها واشنطن، راعية السلام المشبوه.

واتذكر هنا ما قاله لي «وليم كواندت» وعلى مسمع من العشرات من دبلوماسيينا بانه لو كان في مصر نظام ديمقراطي حقيقي لما امكن توقيع اتفاقيات كامب دافيد.

ـ اقترح ان يُمنح الرئيس الفنزويلي شافيز لقب المواطن العربي الاول.

* وزير سابق وكاتب جزائري

بماذا يختلف حزب الله عن التنظيمات السياسية الاخرى؟

د. محمد عجلاني*

■ لا شك ان نشأة الحزب اتت في ظروف معينة ترافقت مع الاحتلال الاسرائيلي للبنان عام 1982 وانسحاب المقاتلين الفلسطينيين من جنوب لبنان، وبماذا الان يختلف هذا الحزب ذو التركيبة الاجتماعية والسياسية والعقائدية والامنية عن بقية الاحزاب السياسية:

1ـ حزب الله هو اكثر من حزب واقل من دولة، اي بمعنى آخر مؤسساته الاجتماعية والطبية والاعلامية والاقتصادية والعسكرية جعلته يتبوأ مركزاً قيادياً من حيث التنظيم والدقة في ادارة شؤون الناس وكل ذلك ضمن شفافية كاملة.

2ـ حزب الله لس خاتما في ايدي ايران او سورية، للحزب استراتيجيته الخاصة بلبنان وبالصراع العربي ـ الاسرائيلي لا تتلاقى في كثير من الاحيان مع طهران ودمشق.

3ـ الحزب ليس شعارات فقط، ممارسة الحزب على الارض من الناحية الاجتماعية والصحية والتسيير الدقيق اكسبته شعبية نادراً ما حصل عليها حزب عربي او اسلامي.

4ـ للحزب استراتيجية قتالية وامنية ربما ستدرس مستقبلا في احدث معاهد الاستراتيجية العسكرية، كما تم تدريس الاستراتيجيات الحربية التي استخدمها المجاهد الشهيد عبد الكريم الخطابي في قتاله ضد الاسبان والفرنسيين في المغرب.

5ـ من الناحية الامنية، للحزب جهاز خاص من الصعب ان تعرف من هم قياديوه، وطرق تحركهم، والرسالات التي يبعثون بها الى المقاتلين الاخرين، ويمكن لك ان تصادف بقالا عاديا في احدى قرى الجنوب يكون مسؤولا قياديا هاما في الحزب بدون ان يظهر لك ذلك.

6ـ اتبع الحزب في قتاله العسكري مع اسرائيل طريقة الكر والفر، لم يستخدم ألوية ثابتة او قواعد دائمة، للمقاتل في حزب الله الحرية في القتال من الشمال الى الجنوب ومن اليمين الى اليسار مطبقا بذلك نظرية ماو تسي تونغ العسكرية خطوتين الى الامام وخطوة الى الوراء.

7ـ للحزب قاعدة ثابتة استفاد منها بشكل كبير، وهي معرفته بجغرافيا منطقة الجنوب اللبناني، معرفة دقيقة، وبتعاطف السكان معه، اذن لقد استفاد الحزب من الديمغرافيا والجغرافيا في ان واحد، فأي عنصر من عناصر الحزب يعرف عدة طرق ربما لا يعرفها الاخرون تؤدي الى نفس القرية.

8ـ طبق الحزب نظرية القائد الفيتنامي جياب والتي تقوم على ان المقاتل الثوري ليس له اسم كامل، وليس له موقع ثابت، ولا مهنة ثابتة او دائمة، وهذه المرونة وعملية التضليل جعلتا الاسرائيليين يعتقدون بأنهم يواجهون اشباحا وليس مقاتلين.

9ـ العلاقات بين افراد الحزب علاقات اخوية شفافة اخلاقية، تقوم على الصدق والامانة، في ظل احترام كبير يكنه العناصر للشيخ حسن نصر الله.

10ـ الحزب وعناصره لم يدخلوا ابدا بل ابتعدوا عن الصفقات المالية، وقضايا الرشوة والفساد التي تورطت فيها الطبقة السياسية اللبنانية مع بعض الضباط السوريين اثناء وجود الجيش السوري في لبنان.

11ـ الحزب لم يلوث ايادية بدماء اللبنانيين اثناء الحرب الاهلية اللبنانية، ورفض ان يخوض حربا ضد المخيمات الفلسطينية بالوكالة عن سورية، كما فعلت (امل) في عام 1983.

12ـ لقد عرف الحزب ان يستخدم كما قلت سابقا الديمغرافيا والجغرافيا لصالحه، ويصوب البندقية الى صدر عدوه الذي يحتل ترابه، لم يذهب قائده الى الكهوف في افغانستان ليحارب بالوكالة عن امريكا لطرد السوفييت من هذا البلد، بل حارب على ارضه وصوب البندق